

# القرآن الكريم والحفر المعرفي المنهجي

د. عبد الله أخواض



مركز نهوض

لدراسات والنشر

NOHOUDH CENTER  
FOR STUDIES  
AND PUBLICATIONS

## ◀ الفهرس:

٣	..... الملخص
٤	..... مقدمة
٦	..... أولاً: القرآن الكريم والتأسيس المعرفي المنهجي
١٠	..... ثانياً: المفاهيم المؤطرة للبحث
١٤	..... ثالثاً: الحفر المعرفي المنهجي في القرآن الكريم من خلال المعرفة التاريخية
١٥	..... رابعاً: التصديق والهيمنة
١٨	..... خامساً: إدراك قانون السببية
١٨	..... خاتمة
٢٠	..... لائحة المراجع

## ◀ الملخص:

■ تندرج الدراسة التي نقدمها ضمن قانون المراجعات المنهجية التي تسعى إلى استدعاء مرجعية الوحي في التأسيس لمنظور معرفي منهجي؛ قادر على المنافسة مع الأنساق المعرفية المغايرة وبأدوات أكثر فاعلية. وهو ما يمكن اكتشافه من خلال الحفر المعرفي والمنهجي الذي مارسه القرآن الكريم، من خلال منهجية الاسترجاع لتاريخ الرسائل السماوية، ولتكاملية الغيب والكون والإنسان.

■ إن تاريخ الأنبياء والرسول مع أقوامهم، هو تاريخ اختبار منظومات فكرية سابقة وأخرى جديدة؛ فهو تاريخ ميلاد وعي منهجي جديد، وفكر منظوم يتجاوز الفوضى المعرفية المنهجية التي عاشتها الإنسانية من الفكر الأسطوري الخرافي والفكر الأبائي الإرجاعي، إلى منظومة مستوية الأركان تؤمن بقدرة العقل على التفاعل الإيجابي مع حقائق تلك الرسائل وحقائق الكون الظاهرة والغيبية.

■ ومن شأن هذا الاسترجاع المعرفي المنهجي للسير في الأرض، أن يمكن العقل المسلم المعاصر، من استكمال شروط النهوض استلهامًا لمنهجه لا استنساخًا لتاريخه، وتأسيس حفريات المنهجية المعرفية المعاصرة في سياق نقدي؛ يسعى إلى إيجاد موقع لمفاهيم الوحي ضمن مفاهيم الأنساق المعرفية الأخرى؛ و تعزيز قدراتها التحليلية والتفسيرية، وإبراز أبعادها الوظيفية البنائية، وتصحيح الاختلالات المنهجية التي واكبت الأنساق المعرفية النسبية، من خلال ما يتيح الوحي للعقل من أكثر دقة وإجرائية، تتجاوز النسق الإبستمولوجي المغاير وتهيمن عليه.

### مقدمة:

يشكل القرآن الكريم بنيةً معرفيةً أساسية، ومنظومةً منهجيةً ضمن مصادر المعرفة الإسلامية، لا يُمكن الاستغناء عنها في سياق استعادة الفقه الحضاري العام، والغيبُ فيها أحدُ المرتكزات الأساسية في بنية التفكير المنهجي عند الباحث المسلم، لا ينفك عنها إن هو أرادَ التأسيس الفعلي لإشكالاته، فقد فتح القرآن الكريم أمام الإنسان ولأول مرة صفحةً جديدةً في الوعي التاريخي والمعرفة التاريخية، بل ثغراتٍ وفجواتٍ في التاريخ الإنساني، وأمره أن يتأملها التأمّل المفضي للاختبار والتصحيح والتصديق لما يَعُجُّ به عالم الأفكار والأشخاص والأشياء.

إن تاريخ الأنبياء والرسول مع أقوامهم، هو تاريخٌ اختبارٍ لمنظومات فكريةٍ سابقةٍ وأخرى جديدة، فهو تاريخ ميلادٍ وعيٍ منهجي جديد، وفكرٍ منظوم، يتجاوز الفوضى المعرفية المنهجية التي عاشتها الإنسانية من الفكر الأسطوري الخرافي والفكر الأبائي الإرجاعي، إلى منظومة مستوية الأركان، تؤمن بقدرة العقل على التفاعل الإيجابي مع حقائق تلك الرسائل وحقائق الكون الظاهرة والغيبية.

وتجربة الإنسان مع المقدس "الوحي"، تجربة سابقة على كل الحركات الجدلية التي اكتشفها الفكرُ فيما بعد، بل إنها كانت أمودجًا لها، واستطاعت أن تشق الطريقَ أمام الفكر المنظوم، ومن خلال كشفها عن المجهول والكينونة والمعنى والحقيقة في عالمٍ تسوده الفوضى وباعث على الخوف والقلق<sup>(١)</sup>. مما يُتيح للعقل المسلم المعاصر إمكانات هائلة؛ في محاورة الأنساق المعرفية المنهجية المغايرة بثقةٍ تُعيد "للتثاقف" قواعدهُ الصُّلبة وتحميه من الذوبان، ويُسترجع معها فصولَ الإبداع المعرفي وَفُقَ نماذجهُ التحليلية وقدراتها التفسيرية، وهُوِيَّة مفاهيمها وقيمها المرجعية.

إن البحث في القرآن الكريم - من خلال قصصه - بحثٌ في الأصول والمفاهيم والوعاء الزماني المستوعب لتلك الأصول وتشكُّل الفكر الإنساني، وللمساحة التي ينبغي الاشتغال عليها. فالتأسيسُ لخياراتنا المعرفية المنهجية المعاصرة، يبدأ

(١) انظر مريتشيا إلياده: البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ترجمة وتقديم سعود المولي، المنظمة العربية للترجمة، ط١/٢٠٠٧. ص٤٢.



باستيعاب تاريخ الوعي وبنياته الأساسية في القرآن الكريم، وهو ما تُفصح عنه قصص الأمم السابقة.

وتحاول هذه الدراسة أن تعالجَه وَفُقَ منظورٍ يُتيح استثمارَ هذه القصص في بناء المعرفة المنهجية المعاصرة، بمواصفات تتجاوز النسق الإبستمولوجي المغاير وتهيمن عليه، من خلال نسقٍ مفتوح، وبمفاهيم أكثر دقة وجرأة في الدراسة والمواءمة.

## ◀ أولاً: القرآن الكريم والتأسيس المعرفي المنهجي:

عاد مجدداً في الأوساط الفكرية والمعرفية المعاصرة الحديث عن مرجعيات الاستمداد، والبناء الفكري والمنهجي والتكوين العلمي<sup>(٢)</sup>، حين أصابها الإعياء، وبعد أن استكملت رحلة البحث الضائع عن الذات، وتكشفت نتائج هذا الجري وراء مرجعيات الغير. حديثٌ صاحبَه منْحَى نقديٌّ لمرجعياتٍ ظلَّت كامنَةً في وعينا الإدراكي ومُشكَّلة لمسار هذا الوعي، خصوصاً في فترات حرجة بالنسبة للفكر الإسلامي المعاصر، وبالأخص في فروع علم الاجتماع والفلسفة، والعلوم الإنسانية بشكل عام حين أحست بضعف قدراتها على الإبداع والإنتاج، وبانفصالها عن القضايا الجوهرية، فبدأ رحلة البحث من جديد عن أسباب الملاءمة والتوافق المجتمعي والنفسي، من خلال ترتيب العلاقة بين القضايا الاجتماعية والإنسانية ومرجعيات المعالجة وتجاوز الفصل المتعسف بين الموضوع وبؤرته - عودَةً من شأنها تجاوزُ الأسئلة القديمة، وإعادة صياغة الأسئلة الجديدة، بما ينسجم والمنطق الواقعي الجديد، وتُخرِجُ العقل العربي الإسلامي المعاصر من الأنفاق المعرفية والمنهجية التي أرغم على ولوجها على اعتبار أن «التحدي الحقيقي الذي يواجه فكر النهوض والتغيير في انشغالاته الذاتية

(٢) انظر دراسة للأستاذ سعد الدين إبراهيم: المرجعيات الغربية للعلوم الاجتماعية في الوطن العربي مقارنة تأليفية، مجلة المستقبل العربي ع ٢٠١٢/٤٠٠، ص ٩٥. استعرض فيها بدايات تأثير المرجعيات الغربية على العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، وكذا نماذج من المفكرين العرب الذين رُوِّجوا لهذه المرجعيات.

والإنسانية هو في نهاية المطاف تحديّ المرجعيات»<sup>(٣)</sup> والمنهجيات، فالانحسار الذي عاشه هذا الفكر في جزءٍ كبير من تاريخه، علَّله التناقضات المرجعية التي استند إليها في تدبير التحديات التي واجهته، وعلى هذا الأساس، تُعتبر مرجعية القرآن المدخلَ الجامعَ لحركات الاجتهاد والبناء في فكرنا المعاصر، في أبعادها الإنسانية، المحلية والكونية.

إن البحث في المرجعيات، وأصول التأسيس المعرفي المنهجي، من شأنه أن «يحرِّك عناصر منظومة معرفية متكاملة يتولد عنها [النظام المعرفي] وعلم المنهجية»<sup>(٤)</sup>. و«المنهجية التي نعنيها هي خروج العقل من حالة التوليد الذاتي للمفاهيم إلى اكتشاف النسق المرجعي الذي يحاكم هذه المفاهيم»<sup>(٥)</sup>.

إنها ذلك الجهد المضني الذي يسعى إلى إعادة بناء الأنظمة المعرفية والأفكار، ضمن إطارٍ مرجعيٍّ، وإعطائها بُعدها الإنساني الذي يُعيد للقيم الدينية والإسلامية وظيفتها؛ في إنتاج المعرفة والحفاظ على بُعدها الغائي في الوجود والحركة الكونية.

فثمة أكثر من مبرر «لضبط مشروع الحداثة في فكرنا العربي المعاصر، ولا نظنُّ بأن استيعاب المنجز الحداثي في نسخته الغربية والعربية، وعقد المقارنات والمقاربات بين النسختين، كافٍ لتفعيل الرؤية الثقافية الحضارية الإسلامية، بل يتطلب الأمرُ إحداثَ فعلٍ تتجاوز من خلال تمكين المرجعية التوحيدية من إحداث فاعليتها، واستكشاف النماذج المعرفية لبناء الحداثة من منظورٍ إسلاميٍّ (...) فالحداثة الإسلامية لا يمكن أن تتحقق إلا بالانطلاق من البنية الثقافية والمعرفية الإسلامية والسياق الحضاري والثقافي والاجتماعي

(٣) ميمون نكاز: ملاحظات حول فكر ومشاريع النهوض أنظار حول الرؤية والمنهج، مجلة المنعطف، ع ١٨-٢٠٠١/١٩، ص ١٣٢.

(٤) سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل: أدوات المنهجية من منظور إسلامي، كتاب المنهجية الإسلامية المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار السلام ط ٢٠١٠/١، ٦٤٣/٢.

(٥) محمد أبو القاسم الحاج حمد: منهجية القرآن المعرفية، أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، دار الهادي، ط ٢٠٠٣/١، ص ٣٥.



للأمة»<sup>(٦)</sup>. بنية ثقافية مؤطرة بأصول مؤسّسة وبانية، وعقلية مستوعبة لمفاهيم هذه الأصول، ومنهجيتها وسياقاتها التاريخية والواقعية.

ومن الضمانات المعرفية المنهجية التي يوفرها القرآن للعقل البشري، تلك الواردة في القصص القرآني، وقدرته على سد الفجوات والثغرات التي أفرزتها الفلسفات الوضعية في علاقتها مع الأنساق المعرفية المتعددة، من خلال القدرة على حُسن قراءة تلك الوثيقة التاريخية القَصصِ وبناء المعرفة التي نحتاجها بمعايير سنن الوحي والواقع الإنساني.

## ◀ ثانيًا: المفاهيم المؤطرة للبحث:

تتأطر هذه الدراسة بمفهومين أساسين: مفهوم الحفر، والمنهج، باعتبارهما أدوات أساسية في الدراسة، نشير إلى ما يخدمها ويعين على بلوغ القصد، ودون الدخول في التفاصيل.

### 1. الحفر المعرفي:

وردت مادة "حفر" في بعض المعاجم تُفيد معنى الكشف عن الآثار، وشق الطريق في الحياة، والبحث عن الشيء واستخراجه، كما يستعمل المفهوم للبناء<sup>(٧)</sup>. وهو علم يُعنى بدراسة الأزمنة الجيولوجية على أساس الحفريات النباتية والحيوانية<sup>(٨)</sup>.

ويعتبر المنهج الحفري " الأركيولوجي" من المفاهيم الأساسية في المعرفة المعاصرة، والأكثر تداولًا بين المفكرين، بل شكّل منعطفًا حاسمًا في العبور بالمعرفة إلى مرحلة الوعي بالانفصالات التي وقعت في تاريخ المعرفة، وبالتشوهات المنهجية التي أصابتها.

ارتبط المفهوم بشكلٍ كبير بالفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو (١٩٢٦- ١٩٨٤م) في حفريات المعرفة، من خلال البحث في أعماق تاريخ المعرفة ونشوء الأفكار وتكوّن المفاهيم<sup>(٩)</sup>. فهو يتجه إلى قراءة الوثائق التاريخية - بكل

(٦) رائد عكاشة وخالد الجبر: الحداثة بين الفكر الغربي والفكر العربي انقطاع أو اتصال؟ مجلة إسلامية المعرفة السنة التاسعة عشرة ٧٦٤ / ٢٠١٤، ص ١١٣.

(٧) معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٨، ٥٢١/١.

(٨) نفسه ٥٢١/١.

(٩) انظر ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة سام يفوت، المركز الثقافي العربي، ط ٢، ١٩٨٧، ص ٥٣.

أنواعها - ومحاولة الكشف عن أسرارها، واستخراج ما يُعين على تجاوز الغموض والاضطراب في تاريخ الأفكار والمفاهيم، والقدرة على تأسيس النظر المعرفي على قواعدٍ من شأنها كتابة الخطابات الفكرية من جديد. نوظف المفهوم في هذه الدراسة بما يسمح بإبراز قيمة الوعي التاريخي، لبعث وعي جديد يعين على حسن قراءة منحنيات الفعل الحضاري، وتجاوز مشكلة الانفصال في الوعي؛ وبالتالي فإن الحفر المعرفي في القرآن الكريم هو قراءة جديدة لتلك التشابكات الحاصلة في التاريخ، على مستوى الأفكار والمفاهيم ومظهراتها على مستوى السلوك.

ويعتبر القاص القرآني نموذجًا معرفيًا قابلاً لهذا النوع من المفاهيم، حيث تتاح لنا من خلاله قراءةٌ لتلك التشابكات الواردة فيه، الذي تمتزج فيه الأبعاد الغيبية المطلقة، بالأبعاد الإنسانية النسبية، بطموحات الإنسان التي لا تنتهي، وبمقصد الله تعالى من الخلق، وهو ما يحتاج إلى التدقيق في الحفر والكشف.

## 2. المنهج:

إن استقراءً لمادة [ن - هـ - ج] في المعاجم اللغوية، نجدها ترد بمعاني ودلالات متعددة، ففي "مقاييس اللغة" لابن فارس نجد مادة "ن. هـ. ج" ترد بمعنيين:

**الأول:** النهج: الطريق. ونَهَجَ لي الأمر: أوضعه، وهو مستقيم المنهاج. والمنهج الطريق.

**الثاني:** يفيد معنى الانقطاع. وأتانا فلان يَنْهَجُ، إذا أتى مبهوراً منقطع النفس، وضربت فلاناً حتى أُنْهَجَ، أي سقط<sup>(١٠)</sup>.

وفي "صاح الجوهري" وردت كلمة "نهج" بمعنى الطريق الواضح. والمنهج كالمنهاج، وأنهج الطريق، أي استبانَ وصار نهجاً واضحاً بيّناً. ونهجت الطريق، إذ أَبْنَتْهُ وأوضحته، ونهجت الطريق إذا سلكته. وفلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك مسلكه<sup>(١١)</sup>.

أما صاحب "لسان العرب" ابن منظور، فيحددها بمعاني تُفيد كلها معنى الوضوح والقوة. يقول: ((طريقٌ نَهَجٌ: بيّنٌ واضحٌ، وهو النهج... وطُرُقٌ نَهَجَةٌ وسبيل منهج: كنهج، ومنهج

(١٠) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط ١٩٧٢/٢، مادة (نهج).

(١١) إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم

للملايين، ط ١٩٩٠/٤، مادة (نهج).





الطريق: وضحه. والمنهاج: كالمناهج... وأنهج الطريق: وضخ واستبان وصار نهجًا واضحًا بيّنًا. قال يزيد بن الخداع العبدى:

ولقد أضاء لك الطريق وأنهجت      سُبُل المكارم والهدى تُعدي

أي تُعينُ وتُقوي.

والمنهاج: الطريق الواضح، واستنهج الطريق: صار نهجًا... ونهج الرجل نهجًا وأنهج: إذا انبهر... والنهيج: الربو وتواتر النفس من شدة الحركة<sup>(١٢)</sup>. وفي التنزيل: {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨]، وقوله: {شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} إشارة إلى أمرين<sup>(١٣)</sup>:

١. ما سخر الله تعالى عليه كل إنسان من طريق يتحرّاه؛ مما يعود إلى مصالح العباد وعمارة الأرض، وذلك المشار إليه بقوله: {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [الزخرف: ٣٢].

٢. ما قيض له من الدين وأمره به ليتحرّاه اختيارًا، ما تختلف فيه الشرائع ويعترضه النسخ. ودل عليه قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الجاثية: ١٨].

و«الشرعة والشرية: الماء الكثير من نهر أو وادٍ، وسميت الديانة شريعة على التشبيه؛ لأن فيها شفاء النفوس وطهارتها»<sup>(١٤)</sup>.

ف«منهاج المسلمين لا يخالف الاتصال بالإسلام، فهو كمنهاج المهتدين إلى الماء، ومنهاج غيرهم منحرف عن دينهم كما كانت اليهود قد جعلت عوائد مخالفة لشريعتهم، فذلك كالمناهج الموصل إلى غير المورد»<sup>(١٥)</sup>.

(١٢) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ) لسان العرب، دار صادر بيروت، ط ١٤١٤/٣- فصل "النون"، مادة (نهج).

(١٣) أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ"الراغب الأصفهاني"، (ت ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم والدار الشامية - دمشق بيروت، ط ١٤١٢/١هـ، كتاب الشين، مادة شرع، كتاب النون، مادة نهج.

(١٤) انظر الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤، ٦/ ٢٢٣.

(١٥) نفسه، ٦/ ٢٢٣.

فجمع في هذا التقرير بين التعريف اللغوي والشرعي. وهو ما ورد في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة: ٥١].

ويعلق صاحب "التحرير والتنوير" على هذه الآية تعليقا لطيفا لا يخرج عن المعنى الذي أثبتته سابقا عن المنهج، فيقول: «تهيأت نفوس المؤمنين لقبول النهي عن موالاته أهل الكتاب، بعدما سمعوا من اضطراب اليهود في دينهم، ومحاولتهم تضليل المسلمين وتقليب الأمور للرسول ﷺ، فأقبل عليهم الخطاب بقوله: "يا أيها الذين آمنوا...!" لأن الولاية تنبني على الوفاق والوئام والصلة، وليس أولئك بأهل الولاية للمسلمين لبعدهما بين الأخلاق الدينية وإضمارهم الكيد للمسلمين»<sup>(١٦)</sup>.

فيكون المنهج بهذا المعنى هو الطريق الذي يتحرّاه الإنسان بما يعود على أمته بالخير والصلاح وعمارة الأرض وتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، مع ما يعترض سيره من متاعب ووعورة المسلك. كما يفيد معنى التأسّي والاقْتداء، وكذا معنى السقوط في مسالك الآخرين والسير في مسيرهم، كما تفيد الآية أعلاه من سورة المائدة.

وترد كلمة المنهج والمنهاج في الاستعمال القرآني أيضا بمعاني متعددة تُفيد معنى السير في الطريق، والعصمة من الوقوع في أخطاء الأمم الأخرى.

ووردت بمعنى "أقوم" كما في قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} [الإسراء: ٩].

فالآية فيها إخبار بأن في القرآن ما يعصم من الوقوع فيما وقعت فيه بنو إسرائيل، كما فيها إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم<sup>(١٧)</sup>. بذلك يكون القرآن هو منهاج المسلمين ومتجاوزا لكتب الأمم السابقة في طرائقها وأسلوبها.

وتارة ترد بمعنى "الصراط" كما في قوله تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣].

(١٦) نفسه، ٢٢٨/٦ - ٢٢٩.

(١٧) نفسه، ٤٠/١٥.



إنه المحاولات التي «تسعى إلى الفكر الأقل تشويهاً والأكثر وعياً بالتشوهات، والذي يتمُّ حتمًا من أجل محاورة الواقع»<sup>(١٨)</sup>، وحل تعقيداته وتشوّهاته الفكرية والمعرفية، الإنسانية والبيئية التي تخلقها سلوكيات الإنسان في علاقته مع ذاته ومحيطه الاجتماعي والمادي، فهو منظومة متكاملة من المفاهيم والأفكار والرؤى والمعتقدات والعوامل الحضارية، والوعي الثقافي لأمة ما أو لجماعة بحثية معينة؛ تشكلت عبر سلسلة من التأمّلات في التاريخ والواقع.

## ◀ ثالثاً: الحفر المعرفي المنهجي في القرآن الكريم من خلال المعرفة التاريخية:

تتبوأ المعرفة التاريخية في القرآن الكريم درجةً عاليةً في فقه الاعتبار والمآل، وما ذلك إلا لكونها مادةً معرفية استجمعت كلّ مكونات المعرفة المنهجية الدقيقة، في علاقتها مع الإنسان والكون والسنن المحركة للفعل الإنساني إيجاباً وسلباً، و«يستخلص من الحديث القرآني المتنوع عن الأمم السابقة واكتساباتها الواقعية وابتلاءاتها الدنيوية، قصيدة المعرفة التاريخية وقوة العلاقة بين الفعل التاريخي والفعل [الإنساني] الحي المستمر»<sup>(١٩)</sup>.

قصيدة معرفية يكون فيها للعامل النفسي الاجتماعي دورٌ الموجه في التغيير الذي «يعد من السمات التي التصقت بالإنسانية، منذ فجر نشأتها إلى الزمن المعاصر، لدرجة أصبح معها إحدى السنن المسلّم بها واللازمة لبقاء الجنس البشري والدالة على تفاعل أنماط الحياة على اختلاف أشكالها، لتحقيق باستمرار أنماطاً وقيماً اجتماعية جديدة يشعر في ظلها الأفراد أن حياتهم متجددة»<sup>(٢٠)</sup>، ومَقْوَمَةٌ بمعايير تنسجم والفطرة الإنسانية السوية، يكون فيها لمقصد الخلق اعتبار بالأولى.

تعتبر المعرفة التاريخية في القرآن الكريم لحظةً وعي لعقل الإنسان؛ من خلال الحفر التاريخي الذي يمارسه، ويمتد إلى نقطة بداية الخلق {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [العنكبوت: ٢٠].

(١٨) إدغار موران: المنهج، ترجمة يوسف تيبس، أفريقيا الشرق - المغرب ط٣/ ٢٠١٣، ص٣٩.

(١٩) عبد الرحمن العضاوي: الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية، روافد (٣٤) منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- الكويت، ط١/ ٢٠١٠، ص٢٩١.

(٢٠) نفسه، ص٢٩٤.

وتحولات هذا التاريخ مما يعزز عنده الثقة بما يباشره في واقعه المعاصر من إشكالات ونماذج من الوعي التي يتدافع معها، وإدراك لشروط هذا التدافع، فيضع القرآن «الإنسان في سياق تاريخي ووجودي أشمل، وإعادة العلاقة بين الإنسان ومحيطه الكوني»<sup>(٢١)</sup> المعاصر، ليس بنسخ مساقات الماضي، بل بوعيها وتحليلها، ووعي أسبابها وشروطها والعلائق القائمة بينها ومنحنياتهما، من خلال النماذج التي يسوقها من قصص التاريخ الحضاري للأقوام السابقة، الذي يُعتبر المختبر الحقيقي لصواب الفعل البشري، فما كان هذا التاريخ حدثًا يُفترى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [يوسف: ١١١]، أو مساحات فارغة تُشغل العقل وتلهيه، إنما هو لحظات ووعي للجماعات الإنسانية وسلوكاتها المعرفية المنهجية. {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [الروم: ٩]، وقوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦].

هكذا يفتح القرآن أمام الإنسان المعرفة بالتاريخ، والتمكّن من منهج القراءة الواعية المتبصرة من خلال مفهومي متلازمين، معرفيًا ومنهجيًا، وردًا في أغلب نصوص المعرفة التاريخية، أو في غيرها، هما: مفهوم "السير"، ومفهوم "النظر".

الأول يُشير إلى الجهد الحسيّ المادي، والثاني إلى الجهد الفكري المعرفي، لكن أيضًا من خلال مفهوم مركزي موجه للجهد المعرفي، هو مفهوم "الكيف" بما يمثله من وعي منهجيّ متميّز في نسق المعرفة القرآنية، وآلية من آلياته المنهجية في اكتساب المعرفة وتحصيلها ونقدها، وسؤال "الكيف" سؤال منهجيّ يحث القرآن الإنسان لفقهه على اعتبار قدرته في تدبير الزمن الحضاري واكتشاف سننه.

يرفع القرآن عن الإنسان كلّ الأغلال والقيود في طلب المعرفة، ويفتح أمامه المجال واسعًا للسؤال والتأمل المنهجي؛ التأمل الذي يوصل إلى اليقين والإيمان والحرية في اتخاذ القرارات الصعبة؛ (حرية الاعتقاد) والتعقل والتفكير والتدبر، فيثير انتباهه إلى كل الوسائل والوسائط الممكنة لتحصيل هذه المعرفة، وفقه سننها والاستناد إليها في بناء الوعي المنهجي المعرفي المعاصر.

(٢١) أحميدة النيفر: المفسر الحديث والوحي، قراءة في المقدمات التفسيرية لقطب وابن عاشور وحاج حمد، "العلوم الإسلامية أزمة منهج أم أزمة تنزيل؟"، م. س، ص ١٠٤.



فالبحث المنهجي هو بالضرورة بحثٌ وسؤالٌ دائمٌ عن صيرورة هذا الكون، وعلاقة الإنسان به، واكتشاف سننه بـ«اعتبار ذلك من أهم مقدمات التفكير الواعي الفعال (...). إن السير في الأرض ليس سيراً في المكان، ولكنه عبءٌ بالزمان والتعرف على سنن فاعليات الإنسان؛ فالسير وعيٌ وسعيٌّ بكل عناصر الساحة الحضارية وقانون "العاقبة" هو المهيم على فاعليات البشر (...). السنن وفق هذا الاعتبار عملٌ منهجي يجسد عناصر الرؤية للعلاقة بين حلقات الزمن المترابطة: الماضي، الحاضر، والمستقبل.»<sup>(٢٢)</sup>.

سنن «ليست عبارات قانونية، بل هي اتجاهات فاعلية وجودية تحدد مساراتِ الحدوث والحديث الوجوديين، بتعيين مجاريهما في أمواج حية تتجلى وجهتها للوجدان الإنساني بما يماثل غاية المنظر في لوحة وجهة الإمكانيات التي تجري في اتجاه الفاعلية»<sup>(٢٣)</sup>.

هكذا ينشئ الوعي عقلانيةً فاعلةً عادلةً مستويةً، أينما توجهها تأتي بخير، مرتبطة بكل مقومات الوعي المنهجي والفكر المنظوم، فلا يترك للعقل الإنساني فراغاتٍ من شأنها أن تخلق حالاتٍ من الفوضى في النظر والتفكير والتدبير والتسيير.

يشكل القاص في القرآن تحولاً إنثربولوجياً "ثقافياً" وأركيولوجياً "حفرياً" في غاية الأهمية والاعتبار المنهجي، من خلال البحث في تاريخ تشكل البنية المعرفية وعلاقتها بالسياقات التي ولدتها، والقدرة على قراءتها من جديد؛ لتوليد أنساق معرفية جديدة مستوعبة لسياقاتها وإرجاعاتها، والتحرك نحو أفق جديد، فتتحول سنن هذا القاص إلى نواظم منهجية معرفية تقدم مادةً حضارية في قيام وسقوط الأمم وعللها الفكرية، والتصورية، فيستوعب العقل من خلال هذه القراءة سنن الاجتماع البشري والعمران الحضاري، وكذا السنن الأخلاقية والنفسية الضابطة لحركة المجتمعات.

ينفي القرآن الكريم ويرفض كل المنهجيات المقوضة لأسس البناء الحضاري (الإنسان - العقيدة - الزمن)، بل يعلمنا هذا المنهج كيف نعتبر بالأحداث التي تمرُّ منها الإنسانية، وأن المشاريع التي تنتج وتسعى إلى الهيمنة والطغيان والظلم وسلب حقوق الناس كان مصيرها الفشل؛ يقول الله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ نَتَّعِدَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} [إبراهيم: ١٣] فالبحث في هذه السنن

(٢٢) سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل: أدوات المنهجية من منظور إسلامي، م. س، ٦٤٢/٢-٦٤٣.

(٢٣) أبو يعرب المرزوقي: الجلي في التفسير، إستراتيجية القرآن التوحيدية ومنطق السياسة المحمدية، الكتاب الأول، الدار

المتوسطة للنشر - تونس ط ٢٠١٠/١، ص ١٣.

«يستدعي إعادة تأسيس العلوم الإنسانية والاجتماعية»<sup>(٢٤)</sup> بمعايير الرؤية الكونية التوحيدية التي تراعي معايير الحق في الخلق. ف«قصص القرآن - وآياته أكثر من آيات الأحكام - لم يأخذ امتداده أبداً في حياتنا (...) ومن العلوم الإنسانية الجديدة: علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الأخلاق. هذه العلوم علوم أساسية في الفلسفة الإنسانية، وهي أساسية في الثقافة الإسلامية، ومع ذلك لم تأخذ الامتداد المطلوب، كما سرى هذا الامتداد في أنواع الثقافة الإسلامية الأخرى...»<sup>(٢٥)</sup> من فقه العبادات والأحكام، فأصبح الطابع الغالب على الثقافة المنهجية الإسلامية هو "الفقه" بالمعنى الضيق، بدلاً من البحث عن محاور أخرى في القرآن الكريم تشكل نقطة ارتكاز لعلوم تفتقر إليها الثقافة المنهجية الإسلامية المعاصرة.

يوجه القرآن الكريم الإنسان نحو هذا الحقل المعرفي بوعي منهجي مُضَاعَف، فالقرآن عندما «يسترجع الماضي التاريخي للبشرية، تكويناً عضويّاً وتراثياً روحياً، فإن هذا الاسترجاع يتخذ طابع النقد التحليلي خارج الإسقاطات الذهنية، التي أشاعت في هذا التراث البشري الفوضي والتزييف؛ بما جعل العلم فيما بعد خصماً لمقولات الدين والمفاهيم الأسطورية والخرافة التي أسقطت نفسها عليه، دون ارتباط بمنهجية الكلمة الإلهية ومعرفيتها باللغة الدقة.»<sup>(٢٦)</sup>

ولتعزيز هذه الثقافة المنهجية فقد «طلب من المسلمين أصحاب الرسالة الخاتمة أن يتبصروا بأحوال الأمم السابقة ويستشفوا التجربة التاريخية، فينقلوها من ورائهم إلى أممهم ليعتبروا ويحول اعتبارهم دون السقوط الحضاري، وانتقال علل الأمم السابقة إليهم»<sup>(٢٧)</sup>.

ونجد هذا الطلب يتكرر في كثير من آي القرآن الكريم، كما أن الاستفادة من هذه السنن وملاحظتها «تُقدم للناس بصراً ومعرفة نظرية وعملية؛ حتى لا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم،

(٢٤) إسماعيل راجي الفاروقي: التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ترجمة السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر - القاهرة ط ١/٢٠١٤ ص ١١٢.

(٢٥) محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن في مدارسة أجزائها معه عمر عبيد حسنة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (٥) ط ٣/١٩٩٢، ص ٨٦.

(٢٦) محمد أبو القاسم حاج حمد: منهجية القرآن المعرفية، م. س، ص ٩٤.

(٢٧) عمر عبيد حسنة: مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (٧) الدار العالمية للفكر الإسلامي ط ٢/١٩٩٢، ص ٢١.



أو تنقدهم إذا وقعوا فيها، أو على أقل تقدير تُكسبهم صلابةً موقف من يدرك السنة؛ لأن موقف من يرى السنن يختلف عن نظر وموقف من يجهل مصدر الأحداث»<sup>(٢٨)</sup>.

ف«روح القصص القرآني هو احتواؤه على جملة من سنن الله الكونية في قيام الأمم وفنائها، وتعلّم هذه القوانين الاجتماعية الخالدة يُشبه دراسة علوم الكون المختلفة ومعرفة الضوابط التي تحكم علاقات بعضها ببعض الآخر»<sup>(٢٩)</sup>.

## ◀ رابعًا: التصديق والهيمنة:

يرتبط مفهوم الحفر المعرفي في القرآن الكريم بمفهومي التصديق والهيمنة ف«المنهج القرآني مهيمن بالوعي والتحليل على عناصر المرحلة التطبيقية الأولى، كما هو مهيمن بالوعي والتحليل على كل المراحل السابقة منذ بدء الكونية وعبر استمراريتها - والمنهج تجريد وتطبيق يستنفذ كل الطاقات العقلية بكافة وسائلها الحضارية المعاصرة، ويعيد تركيز الجهد البشري المتفوق في مجالات العلوم والفلسفة ومختلف الدراسات، ضمن كليتها الواحدة في التجربة الوجودية الكونية - المنهجية تقابل بين الكونية والوعي القرآني بها، ومن هنا تُصبح الشمولية وأقصى قدرات التحليل وسيلتين حضاريتين لابد منهما في التعامل مع القرآن»<sup>(٣٠)</sup>.

بل مهيمن على المناهج التي أنتجها العقل الإنساني؛ لأنها مناهج «تفكيكية وتحليلية» غير قادرة على (التركيب)؛ لأنها لم تنطلق أساسًا من (الغاية التكوينية للخلق الكوني) فاخترته في حدود ملاحظاتها التجريبية المباشرة في عالم "المشيئة" و"التشيؤ الطبيعي"، إنسانًا كان أو طبيعة.

وليس هدف هذه المساقات المنهجية إبطال المعرفة العلمية المعاصرة بجدليتها وصرورتها ونسبيتها واحتماليتها، ولكن (إعادة توظيف) هذه المعرفة العلمية في إطارها الكوني المرتبط بالغاية الإلهية (...). في الخلق والتكوين، بما يجعل المعرفة الدينية (الوحي) أساسًا منهجيًا في فهم الإنسان لنفسه وعالمه، ومصيره وصولًا إلى المفهوم التوحيدي»<sup>(٣١)</sup> للمنهجية المعرفية، دون

(٢٨) جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع، ط ١٩٨٩/٨ ص ١٣٧.

(٢٩) محمد الغزالي: نظرات في القرآن، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢٠٠٥/٦، ص ١٠٠.

(٣٠) محمد أبو القاسم حاج حمد: العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، دار الساقى ط ٢٠١٢ / ٣.

٧٤٠/٢.

(٣١) محمد أبو القاسم حاج حمد: إستمولوجية المعرفة الكونية، إسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢٠٠٤/١، ص ٣٢ - ٣٣.

أن يعني ذلك إلغاء الإبستمولوجيا المعاصرة ومناهجها، وما تقدمه<sup>(٣٢)</sup> من «محددات نظرية» كالصيورة والجدلية والمتغيرات النوعية وتاريخانية الأفكار (...) ليس فيما تقدمه لنا من نسق حضاري أو نهايات فلسفية وضعية»<sup>(٣٣)</sup>.

تتجلى وظيفة القرآن بالنسبة للإبستمولوجيا المعاصرة «أنه يسد النقص في المعرفة الكونية بمنطق (الاستيعاب) و(التجاوز) معًا - رجوعًا إلى تركيبية القرآن نفسه بوصفه معادلًا معرفيًا مطلقًا في حد ذاته لمطلق الإنسان ومطلق الوجود الكوني - فهو كتاب [متعال] بمعنى مطلق تعطي نصوصه أو آياته الكونية (...) متاحات وعي لا متناه في كون متناه، فالخلق في القرآن يتجاوز خصائص المادة وتفاعلاتها المنضبطة إلى تفعيلها عبر كونية لا متناهية»<sup>(٣٤)</sup>، إلى تركيبها على القصديّة والغائية، ف«أهم ما في لحظة الفصل والوصل المطلق والإبستمولوجيا العلمية تجاوز القرآن لاحتماليتها ونسبيتها المفتوحة باتجاه غائية الخلق، غائية الخلق والتكويني (...) في حين الإبستمولوجيا العلمية تستهدف التفكيك والتحليل ولا زالت بعد عاجزة عن التركيب»<sup>(٣٥)</sup> المطلوب في معرفة تسعى إلى خلق حالات من الوعي الراشد.

### ◀ خامسًا: إدراك قانون السببية:

إن استيعاب تاريخ القصص القرآني، إدراك لقانون السببية بين لحظات الأفعال والصعود في الحضارات السابقة، والقيم المرجعية الضابطة لحركة المجتمعات - قانون يسعى إلى « البحث في الأسباب التي تكمن وراء الظواهر الاجتماعية والطبيعية وعدم الاقتصار على النظرة السطحية البسيطة، بل لا بد من العمق والربط بين الأجزاء والنظر إليها ككل متكامل»<sup>(٣٦)</sup>. عقلية «تركيبية تملك القدرة على الرؤية الاستشرافية التي تطل من فوق على حشود من الظواهر بحثًا عن العلائق والارتباطات ووصولًا إلى الحقائق المرتجاة»<sup>(٣٧)</sup>. فهذا النقل المنهجي والمعرفي الذي مارسه

(٣٢) مع صعوبة الفصل في كثير من الأحيان بين المناهج والنماذج الإدراكية التي أسست لها الإبستمولوجيا الغربية ونهاياتها الفلسفية، إلا إذا كان الجهد جهدين، جهد الاستيعاب لفلسفتها، وجهد إعادة قراءتها بمضامين فلسفتنا التوحيدية المتجاوزة والمهيمنة، وهو الجهد الذي ينبغي أن يستغرق تفكير الباحث المسلم المعاصر وفق شروط المرجعية التوحيدية والسياقات التي يحياها.

(٣٣) محمد أبو القاسم حاج حمد: العالمية الإسلامية الثانية، م.س، ١/١١٧.

(٣٤) محمد أبو القاسم حاج حمد: إبستمولوجية المعرفة م.س، ص ٢٠٥.

(٣٥) نفسه، ص ٢٠٤.

(٣٦) عبد الرحمن الطريفي: العقل العربي إعادة التشكيل، كتاب الأمة ع ٣٥، ص ٨٥.

(٣٧) عماد الدين خليل: حول تشكيل العقل العربي المسلم، م.س، ص ٦٤.





القرآن الكريم مع بنية الوعي الإنساني - من البسيط إلى المركب - يعزز في هذه البنية إمكانات هائلة نحو الاستخلاف بكل المواصفات الواقعية والأخلاقية، المادية والغيبية.

معادلات ينبغي أن تتحول إلى حقائق معرفية ومنهجية تحكم تصرفات العقل العربي المسلم نحو التخصصات المتعددة، نحو آيات الآفاق والأنفس؛ إذ لا مجال للعقل المسلم وللفطرة الإنسانية لأداء مسؤولياتها في الخلافة إلا بإدارة الكائنات وتسخيرها<sup>(٣٨)</sup>، وفق منطق يتجاوز فيه الأفق المادي والقيمي والغيبى.

### فالسببية في الرؤية الإسلامية تتخذ مستويات ثلاثة:

**المستوى الكلي:** الشامل للسببية المرتبط بالقدرة الإلهية، فالله خالق كل شيء، وهو ما يشكل نقطة البداية للعلاقات السببية، ويشير إلى أن القدرة الإلهية هي الخالقة لكل عناصر الكون، بإرادة كاملة وحرية كاملة.

وهذا النوع من السببية لا قدرة للإنسان على إيقافه مهما بلغ من العلم؛ لأن أسبابه خارجاً عن ذاته لا يملك قرارها. {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُوَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الزمر: ٦٢ - ٦٦].

**أما المستوى الثاني؛** فيرتبط بجهد الإنسان فهو المؤسس لها - بعد قدرة الله - بإرادته الحرة على اعتبار محورية الإنسان في هذا الكون، فيخضع تحولات المجتمع لمرجعية الوحي وحقائقه، فينشئ سببية لهذه التحولات، وهو ما يخرج البحث الاجتماعي المعرفي العربي الإسلامي من دائرة الفوضى المنهجية إلى الانتظام المنهجي وفق سنن ضابطة وواقعية، ويمنحه القدرة على التفاعل الإيجابي مع تطورات الواقع الإنساني الكوني.

**في حين المستوى الثالث -** السببية المادية - يرتبط بتفاعلات عناصر الكون فيما بينها؛ وقدرة الإنسان على تسخيرها في عمارة الأرض، بما ينسجم مع المشيئة الإلهية - السببية الكلية - لا بما يخالفها أو يخل بشرط من شروطها<sup>(٣٩)</sup>.

(٣٨) انظر عبد الحميد أبو سليمان: أزمة العقل المسلم، م. س، ص ١٥١.

(٣٩) انظر علي ليلة: النظرية الاجتماعية من منظور إسلامي، م. س، ص ٩٤٧ إلى ص ٩٥١.

وقد ذكر السيد باقر الصدر لسنن التاريخ ثلاثة أشكال كبرى توفر للإنسان ضمانات ترتيب الشروط على الجزاءات، وتحديد مجالات اختبارات الإنسان، وحرية في الكون وتطابقه مع حركته<sup>(٤٠)</sup>.

شكل القضية الشرطية تربط بين حادثتين أو مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية، تؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء، بين تغيير المحتوى الداخلي للإنسان، الذي يشكل القاعدة والأساس للحركة التاريخية، وبين الوضع الظاهري للبشرية، ينطبق عليها قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١].

١. شكل القضية الفعلية الناجزة المحققة كالإخبار بوقوع الحوادث.

٢. شكل السنة التاريخية المصاغة على صورة اتجاه طبيعي في حركة التاريخ، لا على صورة قانون صارم حدي، سنة تقبل التحدي، لكن المتحدي يعاقب بسنن التاريخ نفسها، كما في قوله تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: ٣٠].

٣. تقدم الآية الدين «بوصفه سنة من سنن الحياة والتاريخ، ومقومًا أساسيًا لخلق الله، لكنها قابلة للتحدي عندما يتخذ الإنسان مواقف سلبية وإهمالية تجاه هذه السنة»<sup>(٤١)</sup>، ف«السنة التاريخية مطردة (...) ليست علاقة عشوائية قائمة على أساس الصدفة والاتفاق، وإنما هي ذات طابع موضوعي لا تتخلف في الحالات الاعتيادية التي تجري فيها الطبيعة والكون على السنن العامة (...) والتأكيد على طابع الاطراد في السنة تأكيداً على الطابع العلمي للقانون التاريخي؛ لأن أهم مميز يميز القانون العلمي عن بقية المعادلات والفروض، هو الاطراد والتتابع وعدم التخلف»<sup>(٤٢)</sup>. تأكيد مقصده خلق وعي بحركة التاريخ في التحولات التي تجري في الكون، ودعوة إلى فقهاها، وتهيئ للمناخ العلمي المتحرر من الأوهام والصدف والعشوائية، والانتقال من إدراكها إلى تسخيرها.

(٤٠) انظر السيد باقر الصدر: السنن التاريخية في القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠١١، ص ٨٧ - ٩٠ - ٩٢.

(٤١) نفسه، ص ١٠١.

(٤٢) نفسه، ص ٦٩.



## خاتمة: ◀

إدراك هذه السنن من خلال القصص القرآني، ووعيها في أبعادها المعرفية والمنهجية ووعي لسلسلة من الإخفاقات وأسبابها، والنجاحات وعواملها ووعي للحاضر وتحولاته واستشراف للمستقبل وآفاقه، وإعادة الاعتبار للمعرفة المنهجية السننية في نسقنا الفكري المعاصر، وتصحيح لدعوات أسطرت [من الأسطورة] هذه المعرفة وفي مقدمتها، القصة الكبرى والمهيمنة على القصص السابق للأنبياء، قصة محمد بن عبد الله ﷺ، معاناتها، مسارها، إنسانها، منهجها، انفتاحها، ووعيها الحضاري وفلسفتها في الوجود، كما أن من شأن هذا الاسترجاع المنهجي والمعرفي للسير في الأرض، أن يُمكِّنَ العقل العربي الإسلامي المعاصر من استكمال شروط الإقلاع والنهوض استلهامًا لمنهجه لا استنساخًا لتاريخه، وتأسيس حفريات المعرفة العربية الإسلامية المعاصرة في سياق مسار نقدي معرفي منهجي يسعى إلى إيجاد موقع مفاهيم القرآن الكريم ضمن منظومة المفاهيم المعرفية الأخرى، ولأبعادها الوظيفية البنائية.

## ◀ لائحة المراجع:

١. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط ١٩٧٢/٢.
٢. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت، ٧١١ هـ -) لسان العرب، دار صادر بيروت، ط ١٤١٤/٣.
٣. أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ"الراغب الأصفهاني، (ت ٥٠٢ هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم والدار الشامية - دمشق بيروت ط ١٤١٢/١ هـ.
٤. أبو يعرب المرزوقي: الجلي في التفسير، إستراتيجية القرآن التوحيدية ومنطق السياسة المحمدية، الكتاب الأول، الدار المتوسطة للنشر - تونس ط ٢٠١٠/١.
٥. أحميدة النيفر: المفسر الحديث والوحي قراءة في المقدمات التفسيرية لقطب وابن عاشور وحاج حمد، "العلوم الإسلامية أزمة منهج أم أزمة تنزيل؟" أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء دار أبي رقرق للطباعة والنشر - الرباط، سلسلة ندوات علمية (٣) ط ٢٠١١/١.
٦. إدغار موران: المنهج، ترجمة يوسف تيبس، افريقيا الشرق — المغرب ط ٢٠١٣/٣.
٧. إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط ١٩٩٠/٤.
٨. إسماعيل راجي الفاروقي: التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، ترجمة السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر - القاهرة ط ٢٠١٤/١.
٩. جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع، ط ١٩٨٩/٨.
١٠. رائد عكاشة وخالد الجبر: الحداثة بين الفكر الغربي والفكر العربي انقطاع أو اتصال؟ مجلة إسلامية المعرفة السنة التاسعة عشر ع ٢٠١٤/٧٦.
١١. سعد الدين إبراهيم: المرجعيات الغربية للعلوم الاجتماعية في الوطن العربي مقارنة تأليفية، مجلة المستقبل العربي ع ٢٠١٢/٤٠٠.



١٢. السيد باقر الصدر: السنن التاريخية في القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان ط ١، ٢٠١١
١٣. سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل: أدوات المنهجية من منظور إسلامي، كتاب المنهجية الإسلامية المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار السلام ط ١/٢٠١٠.
١٤. الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤.
١٥. عبد الحميد أبو سليمان: أزمة العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة إسلامية المعرفة (٩) ط ١/١٩٩١.
١٦. عبد الرحمن الطيريري: العقل العربي إعادة التشكيل، كتاب الأمة سلسلة فصلية تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية — قطر، عدد ٣٥، ط ١، ١٤١٣ هـ.
١٧. عبد الرحمن العضاوي: الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية، روافد (٣٤) منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- الكويت، ط ١/٢٠١٠.
١٨. علي ليلة: النظرية الاجتماعية من منظور إسلامي بداية البحث عن نموذج تفسيري للمجتمع، المنهجية الإسلامية المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار السلام ، ط ١/٢٠١٠.
١٩. عماد الدين خليل: حول تشكيل العقل العربي المسلم حول إعادة تشكيل العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (٦) ط ٥ / ١٩٩٥.
٢٠. عمر عبيد حسنة: مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (٧) الدار العالمية للفكر الإسلامي ط ٢/١٩٩٢.
٢١. محمد أبو القاسم الحاج حمد: منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، دار الهادي، ط ١/٢٠٠٣.
٢٢. محمد أبو القاسم حاج حمد: العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، دار الساقى ط ٣ / ٢٠١٢.
٢٣. محمد أبو القاسم حاج حمد: ابستمولوجية المعرفة الكونية، إسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١/٢٠٠٤.

٢٤. مريتشيا الياده: البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ترجمة وتقديم سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة ط ٢٠٠٧/١.
٢٥. محمد الغزالي: نظرات في القرآن، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢٠٠٥/٦.
٢٦. محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن في مدارسها معه عمر عبيد حسنة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي (٥) ط ١٩٩٢/٣.
٢٧. معجم اللغة العربية المعاصرة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط ٢٠٠٨.
٢٨. ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط ٢، ١٩٨٧.
٢٩. ميمون نكاز: ملاحظات حول فكر ومشاريع النهوض أنظار حول الرؤية والمنهج، مجلة المنعطف، ع ١٨-١٩/٢٠٠١.



مركز نهوض

للداسات والنشر

NOHOUDH CENTER  
FOR STUDIES  
AND PUBLICATIONS